ظاهرة تكرار النفي في القرآن الكريم

الباحثة: ميسومي نور الهدى
جامعة ابن خلدون- تيارت

ملخص

تمثل ظاهرة تكرار النفي في النص القرآني عنصرًا مهمًّا لتأكيد المعاني وتقريرها في ذهن المتلقي، فالتكرار يعمل على توكيد الدلالات والقطع بها، كما يمثل خاصية من خواص التعبير القرآني، وسمة واضحة من سماته تجعل له وقعا في الحس يختلف عن وقع المعاني الذهنية المجردة، والتعبيرات التي لا ظل لها ولا حركة، ولأن التكرار لون من ألوان الأداء المميز للغة العربية، فهو يبرز في القرآن الكريم بكونه أحد الظواهر الأسلوبية التي تستغل الوظائف الانفعالية والتأثيرية للغة، لتصل إلى المتلقي في إطار أسلوبي يكشف عن الأبعاد الجمالية والدلالية للخطاب ويُجَلِي الجانب الوظيفي له.

Résumé

représente un phénomène répété dans le texte du Coran est un élément important pour confirmer les significations et son destinataire à l'esprit, répétition travaille sur l'accent de sémantique et de la coupe et représente une propriété des propriétés de l'expression coranique, claires attributs font de lui dans un sens différent de signé des significations mentales, expressions qui ne sont pas moins et transaction et non cette répétition des performances couleur pour la langue arabe, il est mis en surbrillance dans le Coran comme un phénomène stylistique qui exploitent les fonctions émotionnelles et efficacité du langage, de frapper le récepteur en Le cadre stylistique révèle les dimensions esthétiques et sémantiques du discours et évacuer l'aspect fonctionnel.

ليس ثمة وصف كامل للغة دون الإشارة إلى المستوى الصوتي من مستوياتها، فهو الجوهر والمكوّن الأساس لها ولمفهوم اللغة ارتباط وثيق بهذا المستوى فاللغة مجموعة أصوات « يعبِّر بها كل قومعنأغراضهم[1]»، وإذا كانت اللّغة بشكلها العام ذات مقاييس نظامية صارمة فإن المستوى الصوتي لها هو بمثابة الصورة التي تخرق هذا الانضباط وتسخره لصالح النسق الصوتي والذي بدوره ينعكس على المعنى الدلالي ليشحنه تأثيرا وانفعالا، وهذا ما يتفرد به المستوى الصوتي القرآني فـ: «الإيقاع في النص القرآني الكريم قد تحرر من كل قيد يقيد المعنى أو يحد من النظام الصوتي، مما أدى إلى حرية التعبير وامتلاك آفاق رحبة من التآلف والتلازم والانسجام»[2]، وهذه الدلالة الصوتية التي تستمد مرونتها من مكامن الجمال ومنابع المعاني الفعالة حيث تؤثر في المتلقي المتذوق للإيقاع الفني والمتدبر في المعنى السامي، تُمثِل جزءا من الطاقة الكامنة للإعجاز في القرآن الكريم «فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها، ليمسك الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازا أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية وفوق ما يتسبب إليه الإنسان إذ هو يشبه الخلق الحي تمام المشابهة»[3].

وهذا يعني أن المستوى الصوتي بمجاله الواسع وما يتضمنه من إيقاع يُسهِم في إثراء الدلالات وإلقاء المعاني الوجدانية على ظلال النص القرآني كي يجعل المتلقي يعيش في كنفه المعنوي العميق، ولاشك في أن القرآن الكريم بكونه كتاب الله المعجز أفاد أبلغ إفادة من فاعلية الإعجاز الصوتي الذي يتميز به لبلوغ هذا الأحاسيس الوجدانية للمتلقي.

والذي يعمد إلى دراسة التركيب الصوتي للنفي في النص القرآني يدرك مدى التناسق والانسجام الصوتي للتراكيب في جمل النفي، ومن أهم الظواهر الصوتية التي تخص هذا الأسلوب هي ظاهرة التكرار الذي يتم بين تراكيبه، لذا سنبحث في الجمل المنفية الحاضنة لهذا الأسلوب وهذا ما سنقتصر عليه في دراسة هذا المستوى من أساليب النفي القرآنية لعنا نبلغ أثر ذلك في بناء المعنى النفسي والتأثيري.

حيث يبرز التكرار في النص القرآني بكونه أحد العناصر التكميلية لتقنيات الإيقاع الصوتي والتي تعمد إلى توظيف قوة الصوت وعذوبته للتأثير اللغوي، فالتكرار أسلوب من الأساليب التي تؤكد المعاني وتوصلها إلى المتلقي بطريقة راقية ومقنعة فيقال « كررت عليه الحديث، إذا رددته عليه، والكَرّ: الرجوع على الشيء»[4]، وجاء في الإتقان: «وهو أبلغ من التأكيد وهو من محاسن الفصاحة خلافا لبعض من غلط وله فوائد: منها التقرير وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر وقد نبه تعالى على السبب الذي لأجله كرر الأقاصيص والإنذار في القرآن بقوله: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} [طه:113] ومنها التأكيد ومنها زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول منه»[5]، كما توقف ابن قتيبة (ت276ه) عند ذات الفائدة التي تتجلى في التأكيد وتقوية المعنى فقال: «وأما تكرار الأنباء والقصص فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوما في ثلاث وعشرين سنة، بفرض بعد فرض، تيسيرا منه على العباد، وتدريجا لهم إلى كما دينه، ووعظ بعد وعظ، تنبيها لهم من سنة غفلة، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعظة وناسخ بعد منسوخ، استعبادا لهم واختبارا لبصائرهم»[6]. ولهذا فإن تكرار النفي ظاهرة صوتية متميزة لابد أن تُدرَس في إطار يُستقِط الحجاب عن تلك الأبعاد الجمالية والدلالية لها وتُوضح أثره في تماسك النص ووظيفته في بلوغ الغايات والفوائد من استعماله للتأثير في المتلقي.

التكرار لأدوات النفي وجمله:

يستخدم القرآن الكريم عدة أدوات للنفي تختلف في وظائفها التوجيهية لهذا الغرض بحسب الفروق الوظيفية الموجودة بينها، ومن الملاحظ أن هذه الأدوات تخضع لنظام التركيب الجملي والغايات التي نستوحيها من السياق، ولهذا فإن استخدام أحد هذه الأدوات يرجع إلى المعنى الذي يحمله النص و تواتر إحداها يرجع كذلك إلى هيمنة المعنى على هذا النص.

فمن الأدوات التي تظهر بكثافة عالية (لا) النافية «لأن تكرار (لا) مع النفي كثير حسن»[7] كقوله تعالى: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} [البقرة71]، إن (لا) الأولى للنفي والثانية مزيدة لتوكيد الأولى لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسقي ومعنى لا شية فيها أي لا لمعة في نقبتها[8]، نفهم من هذا أن تكرار (لا) النافية في هذا السياق هو لتبيان أوصاف هذه البقرة وهذا التكرار مزيد لدعم التأكيد، ولكن لابن حيان رأي آخر فهو يرى أن قوله "لا ذلول": «صفة منفية بلا، وإذا كان الوصف قد نفي بلا، لزم تكرار لا النافية، لما دخلت عليه تقول: مررت برجل لا كريم ولا شجاع، وقال تعالى: {انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ} [المرسلات:30،31]، {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ* لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ} [الواقعة: 43،44] ، {لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ} [البقرة: 68]، ولا يجوز أن تأتي بغير تكرار لأن المستفاد منها النفي»[9].

فهذا التكرار الصوتي لـ(لا) النافية هو ضرورة اقتضاها المعنى الدلالي المتمثل في نفي الأوصاف المتتابعة إذ هذا الوصف المتكرر يدل على تكرر الأسئلة فهو وصف موسع ودقيق يدل ظاهرا على التباس وغموض الموصوف في حين يحمل في طياته تباطئ وتقاعس في إدراكه وقد جاء وصف هذه البقرة قبل هذا في قوله:" لا فارض ولا بكر" فهذا يكفي ليعثروا عليها، ولكن لسؤالاتهم المتعددة تعددت الأوصاف وتعدد النفي معها ليكشف هذه المماطلة التي نزلت إلى حد السؤال عن أمور بديهية لو بحثوا عنها ما كانت لتكلفهم جهدا.

والعرب تأتي بمثل هذا التركيب المشتمل على (لا) النافية مكررة في غرضين: تارة يقصدون به إضاعة الأمرين كقول إحدى نساء حديث أم زرع: لا سهل فيُرتقى ولا سمين فينتقل، وقوله تعالى: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى} [القيامة 31]، وتارة يقصدون به إثبات حالة وسط بين حالين كقوله تعالى: {لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} [النور:35]، وفي قوله: "لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث" تدل لا على انتفاء الصفتين في هذه البقرة[10].

وقد يجتمع التكرار في الأداة والجملة كقوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران 18].

تكرر قوله (لا إله إلا هو) لأن الأول جرى مجرى الشهادة وأعاده ليجري الثاني مجرى الحكم بصحة ما شهد به الشهود[11]، فالشهادة حقيقتها خبر يُصدَّق به خبر مخبر وقد يُكذَّب به خبر آخر، وإذ قد كان شأنه أن يكون للتصديق والتكذيب في الحقوق، كان مظِنّة اهتمام المُخبر به والتثبت فيه، فلذلك أطلق مجازا على الخبر الذي لا ينبغي أن يُشك فيه، فشهادة الله تحقيقه وحدانيته بالدلائل التي نصبها على ذلك، و(لا إله إلا هو) المكررة هي تمجيد وتصديق نشأ عن شهادة الموجودات كلها فهو بذلك تلقين الإقرار له بذلك[12].

فهذه الشهادة هي للإقرار بوحدانية الله عز وجل وتعظيم له، وأي شهادة أعظم من شهادة الله عز وجل، وفيه تشريف للملائكة والعلماء إذ قرنت شهادة الله العظمى بشهادتهم، وتكرير الجملة المنفية يحمل إفادة تأكيد الجملة السابقة ويمهد للجملة اللاحقة (العزيز الحكيم)، فنلمس من خلال هذا التكرير الإثبات القطعي لوحدانية الله عز وجل التي لا تحتاج لأزيد من هذا الإقرار الذي يحققه حضور الفاعل في الجملة وهو الله عز وجل، إضافة لشهادة الملائكة والعلماء، فهو من سبيل التعليم والتلقين لا لفتح المجال من أجل البحث والخوض، في هذا يقول الجرجاني: «وجملة القول إنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفه، إن لم يقدم ما يقدم، ولم يؤخر ما يؤخر، ويُدي بالذي ثُني أو ثُني بالذي ثُلث به لم تحصل لتلك الصورة وتلك الصفة، وإذا كان كذلك فينبغي أن ننظر إلى الذي يقصده واضع الكلام»[13]، وهذا يشير إلى أن الترتيب المختلف للتراكيب واختيار تراكيب محددة يلعب دورا في تحقيق مقصد الخطاب وكيفية تأثيره في المتلقي وإقناعه، فهذا التأثير له علاقة بالترديد الصوتي للتراكيب المترابطة، الذي يصدر عن صدى تكرار الأدوات واتحادها مع تأثير تكرار المركبات بعدها.

وللغة العطف دور فعال في توكيد المعاني وإقرارها في تكرار أدوات النفي وجمله، فالعطف بالحروف من أشهر وأيسر الوسائل اللغوية للربط بين التراكيب وله فوائد عديدة ففائدة العطف «التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه، ثم من الحروف العاطفة ما لا يفيد إلا هذا القدر، وهو الواو. ومنها ما يفيد مع ذلك فائدة زائدة، مثل الفاء وثم، فإنهما يفيدان الترتيب. أما الفاء فمن غير التراخي، وأما ثم فمع التراخي، و أو فإنه يفيد التردد»[14]، وفائدة هذه الأدوات وقوة تأثيرها تزداد شدة في حال النفي وتكراره يقول الزمخشري في قوله تعالى: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [طه:118،119]، «الشبع والري والكسوة والكنّ :هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعرى والظمأ والضحو، ليطرق سمعه أسامي أصناف الشقوة التي حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها»[15] فتكرار العطف بالواو في هذه الأمثلة يتفق والمعنى ويعمل على تأكيده، لأن تكرار الأصوات متتابعة يبرز جوانبه المختلفة ويصور دلائله تصويرا إيحائيا، واختيار حرف العطف في الخطاب القرآني والذي يكثر بالواو ليس مجرد اختيار بسيط بل هو انتقاء فعال ذو أبعاد تأثيرية تجهر

بالإسقاط المتوازي مع المعنى الدلالي قال الجرجاني: «الجمل المعطوف بعضها على بعض على ضربين، أحدها أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جاريا مجرى المفرد، وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهرا والإشراك بها في الحكم موجودا»[16].

لا يخفى من هذا أن فكرة العطف بالواو عند الجرجاني تدور حول دلالة الإشراك فكلما عطفت جملة على جملة دُمجت بها لتشكل وحدة شبيهة بالمفرد، وهذا ما نجده مختلفا عند صاحب الكشاف الذي وجد للعطف بالواو خصوصيات أوسع من ذلك تعمل على تأكيد وتقوية المعنى وترسيخه في ذهن المتلقي، وإن كان الإشراك من مزايا العطف المحكم فإن له دلالة معنوية تتعدى ذلك، وهذا الانتقال الواعي بدلالة العطف وما تحمله من معان تأثيرية تأتي على قيمته راجع إلى تأمل التراكيب القرآنية وفق نصوص كاملة تتعدى حدود الجملة، فقد يكون معنى إحدى الجمل متعلقا بمعنى الجملة الأخرى وقد لا يكون، والترابط بين أجزاء النص المتقاربة أو المتباعدة هو ارتباط وثيق وأدوات الربط العاطفة التي تسهم في إطراء هذه العلاقة باختلاف إفادتها توضح المجال الذي يقف عنده الربط وتعلقه بالمعنى فقد يكون على مستوى الجملة فيربط عناصرها التركيبية دون أن يتعداها الجملة التالية وقد يتجاوزها إلى الجملة التالية أو إلى مجموع النص كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ*} [سورة: الكافرون].

ففي تكراره أقوال جمة ومعاني كثيرة اختلف فيها المفسرون ولكن إجماعهم ثابت على أنها من قبيل البلاغة المعجزة، فهذا التكرار اختصار معجز لأن الله نفى عن نبيّه عبادة الأصنام في الماضي والحال والاستقبال، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضا فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ست مرات، فذكر لفظ الحال لأن الحال هو الزمان الموجود واسم الفاعل واقع مع موقع الحال وهو صالح للأزمنة الثلاثة واقتصر من الماضي على المسند إليهم فقال" ولا أنا عابد ما عبدتم"[17].

فعلى مستوى البنية السطحية للنص يبدوا أن هذا التكرار لا فائدة منه وأن كل جملة تحمل معنى نظيرتها فما الغرض من التكرار؟، لكن الحقيقة هو أن معنى هذه الجمل يختلف في حال وقوعه وهذا الاختلاف الذي خلص إليه جماعة المفسرين راجع إلى الترابط بين هذه الجمل الذي يؤمنه العطف بالواو والذي تجاوز حدود الجملة الواحدة إلى سائر الجمل، فربط بين العناصر المتقاربة التركيب النحوي والتي لكل منها ما يحمله من معنىً خاص وكل منها يتصل بما يناسبه من دلالة بشكل منظم أحدثه الترتيب بالعطف وهذه الأهمية للعطف بين الجمل أشار إليها الجرجاني فقال:« هذا فن من القول خاص دقيق، اعلم ما يقل نظر الناس فيه من أمر العطف أنه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها، ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان...وإذا كان كذلك كانت مع الأولى كالشيء الواحد، وكأن منزلتها منها منزلة المفعول والظرف وسائر ما جيء بعد تمام الجملة من معمولات الفعل من ما لا يمكن إفراده عن الجملة»[18].

فإدراك أهمية الترابط بين الجمل هو وليد المعنى الدلالي الناتج عن الترابط بين أجزاء تراكيب هذه الجمل التي تلاحمت وفق نظام يحمل دلالة الانتفاء في الأزمنة الثلاث والاقتران بين الجمل أحدث دلالة كلية للآيات تمثلت في نفي الكفر الأبدي عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، كما أن هذا الربط للتكرار يحدث تمييز وفرق بين عبادة الرسول الحقى وعبادة المشركين الضالة، فالخطاب القرآني يؤكد أن إيمان الرسول بما يعبد لم يضعف أبدا وإصرار المشركين على الضلال كذلك لم يضعف من عزيمته في الحفاظ على هذه الدعوة الإسلامية السامية ولم يؤثر في استمراره على التوحيد.

ونظير ذلك قوله تعالى : {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ* ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} [الانفطار: 17،18]، التكرار في هذا أفاد زيادة التهويل إذ يعني قوله ما أدراك ما يوم الدين أن أمر يوم الدين بحيث لا ندرك دراية كنهه في الهول والشدة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه[19]. الملاحظ من هذا التكرار لأداة النفي والجملة بعدها أنه يحتضن تكرار المزيد من التعظيم، ونلمس من هذا التردد الصوتي الشديد التقارب تحذير وتنبيه لشدته ولقصور الفكر الإنساني حتى عن تخيل هول يوم الدين لأن علمه عند الله عز وجل وحده.

فما أدراك ما يوم الدين أي هو أي شيء عجيب في الهول والفظاعة ودار أمره لأنه خارج عن دائرة دراية الخلق وأي صورة يصورونه فهو فوقها وأضعافها ثم التكرير بـ"ثم" المفيدة للترقي في الرتبة للتأكيد وزيادة التخويف والمجموع تعجيب للمخاطبين وتفخيم لشأن اليوم وإظهار يوم الدين في موقع الإضمار تأكيدا لهوله[20].

هذا التكرار يركز على الدلالات النفسية للغة من خلال استخدام ذات التركيب، فتقنية الإضمار ونفي ما هو مجهول في ذهن المتلقي أساسا هو بمثابة الوسيلة المقنعة والتي عملت على تأكيد هول يوم الدين، إذ تكرار جملة بذاتها مباشرة يشكل لحمة واحدة مندفعة إلى الأمام حتى تلقى وقعا قويا في ذهن المتلقى جراء التأثير الصوتي الفاعل، والعطف بـــ"ثم" التي تفيد التراخي وبالتالي أخذ مقطع فاصل يحرك الوجدان ويمنحه مجالا للزيادة في الوقوف عند مثل هذه المعاني.

التكرار في اللفظ والمعنى:

وذلك من ألوان التكرار اللافتة في النص القرآني فالارتباط القوي بين المعاني وبين التراكيب يجعل بعض التراكيب ذات الصدى القوي مرصودة من قبل المتلقي لما تحدثه من تأثير فيه فيتم تكرارها، ولأن القرآن الكريم يستعمل إمكانات واسعة ومختلفة لبناء التراكيب فلابد من أن تكرار اللفظ له دلالات كبيرة إذ تلك الإمكانات المعجزة لأسلوبه

تكشف أن تكرار اللفظ هو الأبلغ وأنَّ في كل التراكيب لا توجد تراكيب تُغْنِي عن هذا التكرار.

والتكرار قسمان: أحدهما في اللفظ والمعنى كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ كقولك: أطعني ولا تعصني، فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية[21].

ومن الأمثلة القرآنية التي يتكرر فيها اللفظ والمعنى في سياق النفي قوله تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}[الأنعام: 50].

فقوله (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله) استئناف مبني على ما أسّس من السنة الإلهية في شأن إرسال الرسل لإظهار تبرئة الرسول صلى الله عليه وسلم عما يدور عليه مقترحاتهم، وقوله (ولا أقول لكم إني ملك) حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات مالا يطيق به البشر من الرقي في السماء ونحوه أو تعدو عدم اتصافي بصفاتهم قادحا في أمري، والمعنى إني لا أدعي هذه الأشياء حتى تقترحوها علي وتجعلوا عدم إجابة ذلك دليلا على عدم صحة الرسالة[22].

وعطف: ولا أقول لكم إني ملك على لا أقول لكم عندي خزائن الله بإظهار فعل القول فيه خلافا لقوله: ولا أعلم الغيب، لأن هذه الأخيرة عطف على عندي خزائن الله، فهو في حيز القول المنفي وأعيد حرف النفي على طريقة عطف المنفيات بعضها على بعض فإن الغالب أن يعاد معها حرف النفي للتنصيص، لئلا يُتوهم أن المنفي مجموع الأمرين، والمعنى لا أقول أعلم الغيب[23]. فلا شك أن تكرار (أقول لكم) وإن اختلف السياق العام لكل جملة في مقصد النفي فكل جملة تنفي شيئا معينا، جاء لأن الجمل المنفية الثلاث تحمل دلالة كلية واحدة وهي بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ونفي التَوَهُمات الكاذبة عنه، فالاستغراق الذي افتتحت به جملة (لا أقول لكم عندي خزائن الله) تحمل الكثير من الصور التي يبدو فيها الرسول صلى الله عليه وسلم خاضعا لله عز وجل ومتواضعا لملكوته، وتدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يشعر بالتكليف المعجز له والذي يتعدى طاقاته البشرية من قبل قومه، فتستجيب تراكيب القرآن لذلك الشعور البريء من هذه التهم، فتتناولى الجمل المفندة لذلك بتوالي المعاني المتدرجة والمتمثلة في اقتراحات المشركين التي تلتقي ضمن معنى واحد يدور حول اتصاف الرسل بصفات الألوهية والملكية، فتوالي الجمل وتكرار نفي الرسول "لا أقول لكم" يشكل صورة ملتحمة لإقرار الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لا يملك قوة خارقة وإنما هو بشر يوحى إليه، فبدأ التبرأ من تلك الأوهام التي ينسبونها لطبيعة الرسل بنفي امتلاكه خزائن الله عز وجل، ليثبت أن الأرزاق لله وحده وهذا الإثبات يتناسب مع صدق الرسالة حيث اعتمد على الدلائل العقلية فمن من الخلق ملك أو يملك ملكوت الله عز وجل، ونفي أن يكون عالما للغيب أو أن يكون ملكا يتفق وما قبله في تأكيد طبيعته البشرية، فالأسلوب القرآني يؤثر أن يظهر ذلك بأسلوب النفي الذي يتكرر ليثبت هذه الصفة البشرية على سبيل القطع والذي يثبت اختصاص الله عز وجل بالملك وعلم الغيب فما دام قد نفى هذه الصفات عن نفسه وهو رسول فقد أثبتها لله عز وجل دون منازع ولا شريك، كما أثبت القطع باختصاص الملائكة بتلك الصفات المغايرة لطبيعة البشر كالأكل والمشي في الأسواق.

فخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يُركز على فكرة ادعاء المشركين اتصاف الرسل بصفات خارقة، يرد هذه الفكرة بإرسال جمله المنفيه مكررة لتكون طلقات مدوية في أسماع هؤلاء المدعين، فهو وجميع الرسل لا يملكون ما يتوهمه ويدعيه المكذبون، وهو بإثباته هذه الأمور الخارقة لله عز وجل يثبت أنه لم يرث ما يحقق له قبول هذا الادعاء. فهذا التكرار المدعوم بالعطف يحدث بعدا ترديديا مؤكدا في سمع المتلقي.

ومن الأمثلة القرآنية التي يتكرر فيها اللفظ الذي يحمل ذات المعنى قوله تعالى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: 52].

ما عليك من حسابهم من شيء أي ما عليك ما من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطنة حتى تتصدى له وتتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام وإنما وظيفتك هو شأن منصب النبوة اعتبار ظواهر الأعمال وإجراء الأحكام على موجبها وأما بواطن الأمور فحسابها على الله عز وجل، وذكر وما من حسابك عليهم من شيء للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه صلى الله عليه وسلم[24].

فقوله ما من حسابك عليهم من شيء هو تأكيد بالتتميم بنفي المقابل وهو شبيه بالتوكيد اللفظي، وهذا للتنصيص على منتهى التبرئة من إجابة رؤساء قريش الذين سألوا إبعاد الفقراء عن مجلس رسول الله حينما يحضرون لأنهم معه فقط لأجل المال، ويفيد هذا النفي التعريض بهم وأنهم لو كانوا راغبين في الإيمان لما كان عليهم حساب أحوال الناس[25].

المتأمل للخطاب القرآني يلاحظ أن طرح القضايا يتوافق بانسجام مع معطيات النص لأن اقتراح المشركين استبعاد الفقراء من مجالس الرسول حين يحضرون مدعين أن هؤلاء الفقراء إنما يحضرون رسول الله طمعا في مال، استلزم اختيار رموز لغوية خاصة فمن خلال التركيب الصوتي المتكرر نلحظ أن هذه الفكرة من الأول تحدث طابعا انفعاليا، إذ نفي معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم ببواطن الناس بقوله (ما عليك من حسابهم) وفيه دلالة على حكم الله العام في عباده مما يكسب المعنى مزيدا من القوة لتصبح لفظة (حسابهم) بالذات غاية في الدلالة على تفرد الله في شؤون خلقه، لأن الذي يحاسب هو الذي يملك الوصاية على غيره وبالتالي فإن الوصي على ما تضمره النفوس هو الله وحده، ومادام قد ثبت من استقراء هذا التركيب اللغوي أن حساب الناس على الله لا على الرسول فقد تكرر هذا اللفظ لصرامته تأكيدا، وليلقى وقعه في ذهن المتلقي فيعلم أنما ما يبدي وما يخفي على الله لا

يغيب، وعليه يمكن النظر إلى بواعث هذا التكرار من خلال الرموز اللغوية فلما كان الاعتقاد بأن للرسول قدرة على معرفة خوافي النفوس ومحاسبتها كان لابد من نقض ذلك الإدعاء ليؤكد من خلال هذا النقض أن الروح وما لها وما عليها لله وحده، قطعا تأكيديا فالتضافر الترددي بين الجملتين هو الذي ولد حركة صوتية صلبة الوقع.

وقد يتكرر المعنى دون تكرار التركيب في القرآن نحو قوله تعالى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:29]. فقوله: «لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» يقوم مقام قوله: «ولا يدينون دين الحق» لأن من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر لا يدين دين الحق، وإنما كرر هاهنا للخطب على المأمور بقتالهم، والتسجيل عليهم بالذم، ورجمهم بالعظائم ليكون ذلك أدعى لوجوب قتالهم وحربهم[26].

وهكذا نجد الخطاب القرآني يتكرّر فيه التركيب من حيث المعنى، فالسمات السياقية التي يحملها النص تستدعي وعي كبير من المتلقي كونه يُحَرض على قتال المشركين، فالمحافظة على الدلالة العامة للنص تتيح التغلب على أي نوع من الإشكال قد يصادف متلقي الخطاب كحقيقة من يجب قتالهم، لإحداث توازن في ذهنه وليستطيع تحديد المفاهيم، فكأن عقله لا يرصد غير هذه الصفات التي حددها الخطاب، إذ هذا الخطاب أجرى عملية تصنيف للمعاني التي تحملها تلك المركبات، فقوله «لا يؤمنون بالله واليوم الآخر» هو تحديد لهوية الموصوفين فعدم الإيمان بالله يقتضي عدم الإيمان باليوم الآخر، وهذا التكرار الداخلي يتضمن تكرارا جزئيا للصفات المحددة، ثم تكرر معنى التركيب «ولا يدينون دين الحق» فهذا التكرار الممتد يضمن كشف الالتباس وذم المأمور بقتالهم، ليكون لذلك وقع نفسي جمالي يعمل على إحداث انفعالات داخلية وتحويل هذه الاستجابات الوجدانية إلى وسيلة لفهم الخطاب القرآني.

وبهذا الفهم يمكن حصر الكثير من السمات اللغوية وتحويلها إلى مفاتيح لفهم النص القرآني الذي يحمل ظاهرة التكرار، إذ أن علاقة الجمل بالقضايا المطروحة تبلور كيفية تدخل دلالات القضية المطروحة في استخدام أسلوب دون غيره من الأساليب وتكرار مركب دون غيره.

ميسومي نور الهدى

الهوامش:

1- ابن جني، الخصائص، تحق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط3، 1407ه/1987م، 1/.34

2- محمد قطب عبد العال، الأداء التصويري وإيقاع الفواصل في القرآن الكريم، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، الهند، ذو الحجة، 1430ه- ديسمبر 2009 م، العدد 12 ، السنة: 33، ص:2/1.

3- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي –بيروت- لبنان، الطبعة الثامنة، 1425ه- 2005م، ص 146.

4- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة_ 1414ه، مادة (كر): 135/5.

5- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394ه/1974م، 224/3.

6- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان، د.ط.ت.

7- الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، تحق: عبد القادر أحمد عطا، تعليق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، ص 139/1.

8- ينظر: جار الله محمود الزمخشري، الكشاف، تح: عادل عبد الموجود وعلي محمد عوّض، دار الكتاب العربي، بيروت_ لبنان1407ه، 151/1-152.

9- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحق: صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت_ لبنان، الطبعة الأولى، 1422ه/2001م، 412/1.

10- ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس 1984م، ص 241/5.

11- ينظر: أسرار التكرار، 88/1.

12- ينظر: التحرير والتنوير، 187/3.

13- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة_ دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة:1413ه_ 1992م، ص 1 /364.

14- فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحق: نصر الله حاجي مفتي أوغلى، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، 1424ه/2004م. ص197.

15- الكشاف: 92/3.

16- دلائل الإعجاز:223/1.

17- ينظر: أسرار التكرار، 256/1.

18- دلائل الإعجاز:244/1.

19- ينظر: الكشاف، 717/4.

20- ينظر: إسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي، روح البيان، دار الفكر – بيروت،(د.ط.ت).

21- ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحق: أحمد الحوفي، وبدوي بطانة، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة القاهرة، ص03/3.

22- ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت_ لبنان، ص136/3.

23- ينظر: التحرير والتنوير، ص241/7.

24- ينظر: إرشاد العقل السليم، ص139/3.

25- ينظر: التحرير والتنوير، ص250/7.

26- ينظر: المثل السائر، ص03/3.